من أنوار حديث «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ»

روى البخاري في صحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»(١).

أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد(*)

هذا الحديث يبين لنا أصلًا عظيمًا من أصول الإسلام، يَبِين به التدين الحق فكل تدين بُنيَ على اليسر وافق الحق، وكل تدين اتجه إلى الغلو والتشدد والعنف خالف التدين الحق، وجاءت صياغة الجملة معلنة عن ذلك مليحة به، إذ جاءت الجملة اسمية دلالة على ثبوت هذا المعنى وكونه أصلًا مستمرًّا، وتلحظ التناسب العالي بين المعنى المراد، والعبارة الكاشفة فالعبارة كلها يسر، تُفهم فور قولها، وتُحفظ فور سماعها، ليست بحاجة لبحث في قواميس، وذلك هو الخطاب الملائم لعموم الأمة بكل طبقاتها، وخطاب العموم له سمات منها يسر اللفظ، قِصَرُ العبارة، بناء التعميم؛ فلفظ الدين شامل عام يضم العبادات والمعاملات، والضروريات والحاجيات والتحسينيات، يؤيد ذلك لام الاستغراق في لفظ الدين، والعموم في معنى المفرد «دين» فمعناه الطريق والطريقة والنهج والسبيل، وجاء لفظ الخبر «يُسْرٌ» منكرًا لإفادة العموم، تلاؤما مع عموم معنى لفظ الدين، كما أن العبارة بُنِيَتْ على أوجز صورة للجملة فهي ثلاث كلمات، وقد سيقت الجملة مساق الحقيقة الجلية الواضحة.

وزيادة في تأكيد هذا المعنى، عطفت على الجملة جملة أخرى «ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» ولقد بنيت الجملة على القصر لتقرر حقيقة مؤكدة، وفي هذه الجملة من البلاغة العالية، والنور الزكيّ ما يقطع الطريق على كل متنطع في الدين غالٍ فيه، وقد جاء أسلوب القصر جملة فعلية تناسبًا مع الجانب العملي في التدين فهو جانب فيه حركة ونشاط، وترى الجملة مصدرة بحرف النفي «لَنْ» الذي يفيد تأكيد النفي، كما

(*) عضو مجمع البحوث الإسلامية- رئيس جامعة الأزهر سابقًا.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (٣٩).

أن الفعل جاء بصيغة المشاركة «يُشَادَّ» وهو دالّ على ما في طرفي المشاركة (الدين والمسلم) من حياة وحركة، وقد بث هذا الفعل روح الحياة في الدين وهو معنى، فهو ثابت على اليسر مستقر فيه راسخ، مهما شاده أحد فلن يترك موقعه، فقوته وعظمته في يسره، أرأيت كيف وصفت العبارة أهل التنطّع والتشدد والغلو بالمحاربين للدين؟ وكأنها معركة بينهم وبين الدين، فهذه العبارة التصويرية حوّلت المعاني إلى محسوسات وجعلت الدين كأنه طرف آخر محسوس أنت تجاذبه وهو يجاذبك أنت تشده ناحيتك وهو يشدك ناحيته، كأنه صراع بين طرفين: طرف لم يفهم حقيقة الدين والدين المبني على اليسر.

إن هذا الدين جاء لتهذيب النفوس وترقيتها، ولم يأت تعسيرًا لها، ولا لحرمانها من شهواتها، وإنما جاء لترشيدها وتوجيهها نحو المسلك الصحيح كل ذلك في عبارته ﷺ «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» إن هذا التصوير النبوي العالي يرده إلى صوابه، ويقول لك: افهم أصل الدين الذي ذكرته لك في أول الحديث فهو يسر فكيف تحوله أنت إلى مجاذبة وإلى عنف قوة، وقد وقع شيء من هذا من عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه، والحديث في صحيح البخاري- في أول حياته حينما شدد على نفسه في الطاعة فكان يقوم بالقرآن كل ليلة وكان رسول الله ﷺ قد رده عن ذلك، وقال له: لا تقم بالقرآن إلا في كل جمعة مرة، أي: في كل أسبوع، فقال يا رسول الله: إني أطيق أكثر من ذلك، فقال له: لعله يأتي عليك زمان لا تطيق. وقد قيل: إن عبد الله بن عمرو قال في آخر حياته: ليتني سمعت كلام رسول الله ﷺ.

وقد جاء في السنة المشرفة أن ثلاثة[٢] من الصحابة جاءوا إلى سيدنا رسول الله يسألون عن عبادته فلما أُخبروا كأنهم تقالوها. فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر، وأما أنا فلا أتزوج النساء... إلخ فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا فقال: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» إن يسر الدين هو الملائم لطبيعة النفس وفطرتها، وهذه النفس قائمة في جسد، وللنفس حاجاتها وللجسد احتياجاته، وبُني الشرع الحنيف على إعطاء كل منهما حقه، وهذا هو الذي ارتقى بالأمة فصارت أمة وسطًا عدلًا، كما جاء في حديث البخاري «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»[٣] فكما كلف الشرع بواجبات قرر حقوقًا، فمن قام بما كلف، وأعطى كل ذي حق حقه كان متدينًا حقًّا، وقد ورد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ: «مَا بَالُ هَذَا؟»، قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ»، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ[٤] لأنه كلّف نفسه ما لا يطيق:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

(البقرة: ٢٨٦)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أَنَس بْن مَالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، برقم: (٥٠٦٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ -رضي الله عنهما -، برقم: (١٩٦٨).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، برقم: (١٨٦٥).

فهو بهذا يشاد الدين فيغلبه الدين.

وكما بدأ الحديث بتقرير حقيقة، ثم واجه من يخالفها ويخرج عنها وبين أن الخارجين على هذه الحقيقة لهم مصير محتوم وهو الغلبة، ولا يستقيم أمر حقيقة إلا بمواجهة مخالفيها وتقويمهم، أتبع ذلك بإرشادات في صورة أوامر تهدي إلى مراتب تطبيق هذه الحقيقة، ووسائل تعين عليها فجاءت الأوامر تترى شرحًا وبيانًا وإرشادًا «فَسَدِّدُوا» والتسديد في الأصل يكون في نسيج الثوب وهو أن تضع الخيط بجانب الخيط بالتساوي.. إلخ، فهذه هي المرتبة العليا في الدين بمعنى أن تقوم بالفرائض والنوافل كما أمرك الإسلام .

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ (هود: ١١٢)

ثم تأتي المرتبة الثانية «وَقَارِبُوا» ومرتبة المقاربة هي شرح لقوله تعالى:

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)

فطاقات النفوس متفاوتة، فهناك من له طاقة أن يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع على طول العام، وهناك من له طاقة أن يصوم الأيام القمرية من كل شهر، وهناك من ليس له طاقة إلا أن يصوم رمضان وربما يصوم يوم عرفة معه. كل هذه الطاقات حسب تحمّل النفس فكن في إحدى المرتبتين ولا تكن في غيرهما، وقد وسّع الإسلام في النوافل، وكل يأتي منها ما يقدر عليه، فمن الناس من يستطيع أن يقوم الليل باستمرار، ومنهم من لا يستطيع أن يقوم الليل إلا في رمضان، ومنهم من يستطيع أن يقوم الليل في بعض الأيام، وكل ذلك يعد من المقاربة.

ثم يرشدنا رسول الله ﷺ إلى ما يجب التلبس به في المرتبتين وهو التفاؤل والبشارة وحسن الظن بالله «وَأَبْشِرُوا»، فعلى المسلم أن يقرن طاعته وتوبته وأوبته بحسن ظنه بربه، ويستحضر قوله تعالى:

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)

وقوله:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ (الزمر: ٥٣)

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ (النساء: ١١٦)

فاستحضار آيات البشارة هذه هي تعبد باسم الله الغفور الرحيم وإعلان عن يقينه بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا.

وتأكيدًا للبشارة عطف فعل الأمر «وَاسْتَعِينُوا» أي: على التسديد والمقاربة، وربما تسأل: هل «أَبْشِرُوا» تحتاج استعانة؟ نعم، وكأن الإسلام يخاطب النفس التي يمكن أن تقع فريسة الاكتئاب أحيانًا، وجلد الذات فتنسحق الذات نهائيًا «وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» هذه أوقات ثلاثة «الْغَدْوَةِ» أي: وقت الغداة، والذي يبدأ من بعد صلاة الفجر إلى نهاية صلاة الضحى، «وَالرَّوْحَةِ»: وهو الذي يبدأ من بعد صلاة العصر إلى قبيل المغرب «وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»: وهو الوقت الذي يكون في السحر آخر الليل، إذن هذه الأوقات التي تحسن فيها معالجة النفس، من التشدد أو التقصير؛ لأنها أكثر بركة وغنم ثواب وإن قل العمل فيها، ففي وقت الغدوة

يقول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»[٥] وقال للسيدة فاطمة، يا فاطمة: «قَومِي اشْهَدِي رِزْقَ رَبِّكِ، وَلَا تَكُونِي مِنَ الْغَافِلِينَ، فَإِنَّ اللهَ يَقْسِمُ أَرْزَاقَ النَّاسِ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ»[٦] «وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ» كما بين ربُّنا سبحانه فضل صلاة الضحى وقيام الليل وأقسم بهما تعظيمًا لهما فقال:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (الضحى: ١، ٢)

فهذان الوقتان: الضحى والسحر مُهِمّان جدًّا تُفتح فيهما أبواب السماوات، ويغتنم المسلم في هذه الأوقات الطاعات، فالنبي ﷺ يرشد الأمة إلى الأوقات التي يمكن أن يستعان بها على يسر الدين وعلى التسديد والمقاربة والاستبشار، فالضحى صلاة الأوابين «ابْنَ آدَمَ ارْكَعْ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ»[٧] والروحة حين يعود الناس من حوائج دنياهم وشواغلها من بعد صلاة العصر وهو الوقت الذي تتعاقب فيه الملائكة كما جاء في الحديث «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ»[٨] ومن هنا قال ربنا:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ (البقرة: ٢٣٨)

وقد ذكر العلماء أن الصلاة الوسطى هي: صلاة العصر، وهو أصلح الأوقات لمحاسبة النفس؛ لأنه في آخر النهار بعد الانتهاء من مخالطة الناس، وكدّ الحياة والسعي على الأرزاق، فعلى الإنسان أن يحاسب نفسه في هذا الوقت، فإن حساب النفس آخر النهار يصلحها ويقومها في إقبالها على ربها أو إدبارها.

والوقت الثالث: «وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»، تأمل كلمة «شَيْءٍ» وما فيها من الرحمة والشفقة؛ ذاك أنه وقت الراحة، أما الوقتان السابقان، فكلهما حركة ونشاط، وانهماك في شواغل الحياة، فلم يقل النبي ﷺ فيهما: وشيء من الغدوة وشيء من الروحة، وإنما جاء فضلهما من كونهما وقتي غفلة وانشغال، فمن أقبل على الله في أوقات الغفلة، وانصراف الناس عنه كان مغتنمًا أفضل الأوقات، وقد أبصرنا كيف التفت آخر الحديث إلى أوله، كيف جاء المطلع مقررًا مبنى الدين وهو اليسر، مرتكز أحكام الشريعة والتكاليف، وكيف جاء آخره مبينًا سبل الاستعانة على القيام بهذه التكاليف الهادية إلى تطبيق هذه الحقيقة، فبُني الحديثُ على ثلاثة مقاطع: مقطع يقرر حقيقة، يليه مقطع يواجه الخارجين عليها، يختمه مقطع يبين سبل الاستعانة على تطبيق المطلع. لله درّك يا سيدي يا رسول الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(٥) أخرجه أبو داود في سننه عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ –رضي الله عنه –، برقم: (٢٦٠٦)، وأخرجه أحمد في مسنده عَنْ صَخْرٍ الْغَامِدِيِّ –رضي الله عنه –، برقم: (١٥٤٣٨).

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عَنْ فَاطِمَةَ –رضي الله عنها –، برقم: (٤٤٠٥).

(٧) أخرجه الترمذي في سننه عن أَبِي ذَرٍّ –رضي الله عنه –، برقم: (٤٧٥)، وأخرجه الطبراني في معجمه عَنْ أَبِي أُمَامَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –، برقم: (٧٧٤٦).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه –، برقم: (٥٥٥).